مدرسة الإسكندرية

اللاهوتي ومعرفة الله

عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٢)

مركز الأبحاث بالمجلة

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد السادس - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٦

اللاّهوتي ومعرفة الله (٢)

عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات

إعداد: مركز الأبحاث بالمجلة

اللاّهوتي ومعرفة الله

عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات (٢)*

إعداد مركز الأبحاث بالمجلة
R-center@alexandriaschool.org

ثانيًا: اللاّهوتي والاستنارة

في المقال السابق تكلّمنا عن اللاهوتي وحياة النقاوة، ورأينا أنّ النقاوة، عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات، ضروريّة لبداية طريق معرفة الله. القارئ لكتابات القديس غريغوريوس يلمح محورًا ثانيًا يتعلّق بالحديث عن معرفة الله؛ وهو ضرورة الاستنارة لأجل نوال تلك المعرفة. ولكي نرى ذلك بصورة مثاليّة، يجب أن نعود مرة أخرى للنموذج الذي أورده القديس غريغوريوس في حديثه عن معرفة الله في العظة اللاهوتيّة الثانية، وهو صعود موسى على الجبل ليلتقي بالله (انظر: خر١٩، ٢٤، ٣٣).

في بداية العظة يتكلّم عن أهميّة التطهُّر وحياة النقاوة ثم ينتقل بعد ذلك ليتكلَّم عن معرفة الله ذاتها.

الله لا يمكن إدراكه بصورة كاملة

يرى القديس غريغوريوس أنّ الله لا يمكن إدراكه بشكلٍ كامل فيقول: "ماذا حدث لي، أيها الأصدقاء الواقفون على الحقيقة، ورفقاء محبة الحقيقة، لقد أسرعت لأدرك الله καταλαμβάνειν، وصعدت هكذا إلى الجبل، ودخلت الغمام، منعزلاً في داخلي عن المادة والماديّات، ومنكفئًا على ذاتي قدر

* عن كتاب:
Christopher A. Beeley, *Gregory of Nazianzus on the Trinity and the Knowledge of God,* Oxford university press, pp. 90-113

المستطاع. وعندما نظرت، لم أكن أرى سوى وراء الله؛ وكنت مُحتميًا بالصخرة (انظر: خر ٣٣: ٢٣)، بالكلمة (انظر: يو١: ١٤) الذي صار جسدًا من أجلنا، وعندما انحنيت قليلاً، أبصرت، لا الطبيعة الأولى الخالصة من كلّ اختلاط، التي تُدرِك ذاتها، أعني الثالوث، وكلّ ما يبقى وراء الستر الأوّل الذي يغشيه الكاروبين، بل ما يقع في الطرف ويصل إلينا. إنّه، على ما أرى، عظمة الله في المخلوقات وفي الأشياء التي أبدعها وساسها، وما يُسمّيه داود التقي «جلاله» (انظر: خر ٨: ٢). هذا ما يُرى وراء الله وما يُدرَك بعد اجتيازه. إنّه كظلال الشمس على المياه، والأخيلة تُمثّل الشمس للعيون الضعيفة، إذ لا يمكن التحديق في ذات الشمس، لأنّ صفاء نورها يتغلّب على الحواس. بهذه الطريقة يجب أن تتعامل مع اللاّهوت، وإن كنت موسى، وإلهًا لفرعون (انظر: خر ٧: ١) وإن كنت بلغت السماء الثالثة كبولس، وسمعت كلمات تفوق الوصف، وإن تفوّقت عليه (بولس)، في أحد المواقع أو الصفوف التي للملائكة أو لرؤساء الملائكة. فكلّ كائنٍ، سواء كان علويًا أم فوق العلوي، وإن كان بطبيعته أرفع منّا جدًّا وأقرب من الله، فهو أبعد من الله ومن إدراك الله بشكلٍ كامل κατάληψις، بُعده عنّا نحن الخليط المُركّب (من نفس وجسد) السفلي الميّال إلى الأرض." [1]

في النصّ السابق يشير ق. غريغوريوس من خلال صعوده إلى الجبل، مع تركيزه الكامل قدر الإمكان على الله وحده، أنّه يرى ويصف سمو معرفة الله، وهذا النصّ يُعد من أشهر كتابات ق. غريغوريوس التي يعبِّر فيها عن رؤيته اللاّهوتية بشأن معرفة الله. [2]

ويربط ق. غريغوريوس من خلال كتاباته بين نقطتين؛ الأولى: أنّ الله غير مُدرَك، والثانية: تتعلّق بالطريق الذي من خلاله يمكن أن يعرف المسيحيون، الله.

---

[1] Orat. 23.3.

[2] McGuckin. *St. Gregory of Nazianzus: An Intellectual Biography*. Crestwood, N.Y: St. Valadimir's Semmany Paris, 2001;Plagnievx. *Saint Gregoire De Nazianze Thealogien*. Paris: Editions Franciscaines, 1951.

ونلاحظ في النصّ السابق، تأثير الجدل اللاّهوتي الحادث في تلك الحقبة، وجهاد القديس غريغوريوس ضدّ أفنوميوس الهرطوقي، الذي ادّعى أنّه يعرف جوهر الله بصورة كاملة وتامة.

ويقدِّم ق. غريغوريوس تأمُّله بشأن الصعود على جبل سيناء (انظر: خر ١٩، ٢٤) في العظة اللاّهوتية الثانية، ليُفنِّد ويدحض زعم أفنوميوس، حيث يبدأ النصّ بالحديث عن الصعود إلى الجبل برجاءٍ جادٍ ليتقابل مع الله؛ "إني مُسرع لأدرك καταλαμβάνειν الله"، ليس ليعرف الله ببساطة، لكن ليعرفه بالكليّة، وفى الجملة النهائيّة في النصّ يُكرِّر القديس غريغوريوس النقطة الرئيسيّة التي تُشكِّل محور النصّ كلّه: إنه ليس شيئًا مُهمًّا صار عاليّا بمقارنته بالآخرين، وحتّى إن صار متسعًا جدًّا، فهو لا يزال بعيدًا جدًّا عن "الإدراك الكامل κατάληψις لله". والقارئ لحديث القديس غريغوريوس عن الصعود إلى جبل سيناء في تلك العظة، يلحظ إحساس شخص لم يتمكّن من إدراك الله كما كان يأمل، لكنّه بالكاد نجح في أن يرى فقط "وراء الله" (انظر خر٣٣: ٢٣) وبهذا يؤكِّد القديس فكرته أنّ الله غير مُدرَك ولا يمكن معرفته بصورة كاملة وتامة، وبهذه الفكرة هو يتّفق مع فكر العلاّمة أوريجانوس بشأن معرفة الله.[٣] وفي نصوصٍ أخرى عديدة، يؤكِّد القديس غريغوريوس على أن كلّ العطايا الإلهيّة كما المعرفة، تُدرك جزئيًّا وليس بشكلٍ كامل، إذ يقول: "ليس هو سلام الله وحده الذي يفوق كلّ عقل νους (انظر: في ٤: ٧) وكلّ إدراك κατάληψις، وليس كلّ ما أُعدَّ للصديقين ووعُدِوا به ممّا لم تره عين ... وليس هو معرفة الخليقة الدقيقة"[٤]، فكلّ ما نعرفه هو معرفة جزئيّة.

الله غير محدود فلا يمكن إدراكه بالعقل البشري

يرى القديس غريغوريوس أنّ العقل البشري لا يستطيع إدراك الألوهة، ويقدِّم تلك الفكرة بتعبيرات مختلفة، فيوضِّح أنّ تخيُّل الألوهة في كامل

[3] C.f. Princ. 1.1.5; 4.4.4.8; Moreschini *Influenze Di Origene* 45- 47.
[4] Orat. 28.5.

عظمتها أمر غير ممكن[٥]، وأنّه يصعب إدراك اللّه ويستحيل التعبير عنه[٦]، وأنّ ما هو إلهي، لا يمكن الإحاطة به بالعقل البشري.

في التعبيرات السابقة، يستخدم القديس غريغوريوس صور مختلفة من الفعل اليوناني *λαμβάνειν* [٧]، الذي قد أُستعمِل بصورة رائجة في ألفاظ الفلسفة الرواقيّة، ليُعبِّر عن معنى: يدرك، يفهم، يبرع في أو يحيط بشيء ما، فالإدراك هو مسألة فهم تام وكامل.

لذا يوضح القديس غريغوريوس في عظته الرثائيّة في نياحة والده، أنّ الجلال اللاّنهائي للّه وعظمته، لا يمكن معرفتهما بصورة كاملة ولا أن يطّلع بذلك أي كائن مخلوق، فيقول: "حيث إنّ كلّ صفات اللّه غير مدركه *ἀκατάληπτον* وأبعد من قدرة عقلنا، وكيف يمكن لمن هو سامٍ (فوق مستوى وجودنا) أن ندركه أو نفهمه، وكيف يمكن أن يُقاس من هو لا نهائي، وكيف للألوهة أن تهبط لحالة الأشياء المحدودة وتُقاس بدرجات ومستويات الهبوط."[٨]

ويؤكّد ق. غريغوريوس على أنّ حقيقة كون اللّه غير مُدرَك هي نتيجة طبيعيّة لمبدأ أنّ اللّه غير محدود وأن الكائنات المخلوقة، شاملة العقل البشري، محدودة. وأنّ اللّه الخالق هو مصدر الكلّ يسمو على كلّ الأشياء في جلاله وعظمته ـ نفس الفكرة موجودة في كتابات العلاّمة أوريجانوس[٩] ـ وأنّه ذو طبيعة سامية وعظيم جدًّا لدرجة أنّ كلّ الأشياء تبدو صغيرة وضعيفة بالمقارنة به، وغير قادرة على الاقتراب منه.[١٠]

وفي نصٍّ من العظة الأولى المبكّرة عن السلام، يؤكّد قديسنا على أنّ اللّه ليس مجرّد أعظم من كلّ الأشياء بدرجات، بل هو عظيم بصورة لانهائيّة، ساميًا بصورة كاملة عن الخليقة، فيقول: "اللّه هو أجمل وأمجد من كلّ

---

[5] Orat. 28.11.
[6] Orat. 28.4.
[٧] الفعل اليوناني المشار إليه هو صيغة المبني المتوسط من العقل اليوناني *λαμβάνω* بمعنى "أمسك بـــ" .
[8] Orat. 18.16.
[9] C.F. Princ 4.1.7.
[10] Orat. 2.5,75.

الموجودات *τῶν ὄντων*، أو يفضل أحد أنّ يفكّر فيه كجوهرٍ سامٍ *ὑπὲρ τὴν οὐσίαν*، أو يرى فيه مُجمل الوجود كلّه، حيث منه يتدفّق (الوجود) للآخرين."[١١]

وفي عظاتٍ أخرى يوضّح القديس غريغوريوس أنّه من ناحية، نعلم أنّ اللّه عظيمٌ بصورة سامية، ومن الناحية الأخرى أنّ عظمته تفوق كلّ مستويات العظمة، وأنّ اللّه أسمَى من الزمان والمكان والكون ككلٍّ، وحتّى من كل النقاء والصلاح.[١٢]

في العظة الأولى على الظهور الإلهي، يصف ق. غريغوريوس سمو اللّه مستعينًا ببعض التعبيرات من الكتاب المُقدَّس والفلسفة، فيقول: "أمّا هو (اللّه) فهو كائنٌ أزليٌّ، وهذا هو الاسم الذي أعطاه لنفسه عندما ظهر لموسى (انظر: خر ٣: ١٤) ... الكائن *ὁ ὢν* لأنه يجمع ويحوي كلّ الوجود[١٣] *ὅλον τὸ εἶναι* في نفسه، لا بداية ولا نهاية له، كمثل محيط لا نهائي لا حدود لوجوده، هو يفوق كلّ نقطة في الزمان والطبيعة."[١٤]

وبينما اللّه كمثل محيطٍ متسع لا حدٍّ لوجوده، إنّه عظيمٌ ليس بصورة نسبيّة بل بصورة مُطلقة، فهو يسمو على الوجود نفسه وحتّى على كلّ مستويات العظمة.[١٥] لذا فإنّ اللّه أعظم من العظمة ذاتها، يسمو بالكليّة عن قدراتنا لإدراكه أو التعبير عنه في لغة.[١٦]

اللّه يفوق كلّ تعبير عنه ومع هذا نستخدم ألفاظ ولغة بشريّة للتعبير عنه

إنّ اللّه غير محدود ويسمو على كلّ الوجود واللغة، يُعبِّر عن تلك الرؤية القديس غريغوريوس في العظة اللاّهوتية الثانية فيقول: "فلابد والحالة هذه من

---

[11] Orat. 6.12.
[12] Orat. 2.5, 76; 37.2.
[١٣] هذا التعبير تجده أيضًا عند أفلاطون. انظر: Symp 210d.
[14] Orat. 38.7.
[15] Orat. 37.2
[16] Orat. 30.17; 32.14; 38.18.

العودة إلى المسيرة (الصحيحة) على النحو التالي، إذ يصعب إدراك الله، ويستحيل التعبير عنه."[١٧]

لكن هذا لا يعني بأنّنا سنكون أفضل حالاً إن تجنّبنا اللُّغة والألفاظ، بل العكس تمامًا، يرى القديس غريغوريوس، أنّ المصطلحات المُحدّدة للتعليم المسيحي تكون ضروريّة وتُعبِّر بحقٍ عن معانيها الفعليّة، وإن كانت هذه المعاني تسمو عليها بالفعل.

التعبير عن سمو طبيعة الله من خلال مفاهيم العظمة، هي الطريقة المفضّلة عند القديس غريغوريوس، فيتحدّث في عظته اللاّهوتية الرابعة، متكلِّمًا عن إمكانياتنا المحدودة لفهم سمو طبيعة الله وللتعبير عنه فيقول: "فلم يتمكَّن أحد من استنشاق الهواء كلّه، وجوهر الله لم يتمكَّن عقل من تصوّره، ولم تتمكن لفظة من احتواء حقيقته احتواءً كاملاً، ولكنّنا نتّخذ ممّا حوله (علاقته وجلاله ونعمته) طريقًا إلى تخيلّه في ذاته."[١٨]

فإنّ الله مُدرَك، ولكن جُزئيًّا (نسبيًّا)، بينما يظل، أيضًا، جزئيًّا غير مُدرك. هذه رؤية القديس غريغوريوس بشأن إمكانية إدراك الله، والتعبير عن إدراكه بألفاظ كميّه.

ويقصد ق. غريغوريوس بتعبيره أنّ الله غير مُدرك؛ عدم قدرة العقل البشري المُحدود على معرفة تمام عظمة وكمال الله. ونرى ذلك بوضوح في ليتورجيّة القديس غريغوريوس، إذ نقرأ: "أيّها الواحد وحده الحقيقي، الله مُحب البشر، الذي لا يُنطق به، غير المرئي، غير المحوى، غير المبتدئ، الأبدي، غير الزمني، الذي لا يُحدُّ، غير المفحوص ... ليس شيئًا من النطق يستطيع أن يحدّ لُجّة محبتك للبشر."[١٩]

---

[17] Orat. 28.4.
[18] Orat. 30.17.
[١٩] عبد المسيح صليب المسعودي(المتنيح القمص). الخولاجي المقدس أي كتاب الثلاثة القداسات مع صلوات أخرى مقدسة، إصدار دير البرموس، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢.

لم يستطع القديسون أن يُدركوا اللّه بصفة تامة ولا أن يعبِّروا عنه بالكمال. وقد شهد القديس بولس، الذي اختُطِف للسماء الثالثة بذلك قائلاً: «لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ» ولأنّ كلّ معرفتنا عن اللّه هي «في مرآه في لغز» (انظر ١كو ١٣: ١٢، ٩).

هذه الفكرة نراها في العظة اللاّهوتية الثانية للقديس غريغوريوس، إذ يقول: "وإبراهيم تبرَّر بالإيمان (انظر: تك ١٥: ٦؛ رو ٤: ٣)، هو أبو الآباء الكبير، وقد قدَّم ذبيحة غريبة كانت رمزًا للذبيحة الكبرى (ذبيحة المسيح). إنّه رأى اللّه، لا اللّه في أُلوهيّته (انظر تك ١٨: ١ ـ ٢)، ولكنّه قدَّم له الطعام على أنّه إنسان (انظر: تك ٢٨: ١٨) ... ويعقوب رأى في حلمه سلّمًا منتصبًا وملائكة تصعد عليه (انظر: تك ٢٨: ١٢) ... ولكن لا هو، ولا أحد من أسباطه الإثنا عشر الذين كان لهم أبًا، استطاع إلى هذا اليوم أن يدَّعي بأنّه عرف طبيعة اللّه، أو أنّه شاهدها مشاهدةً تامّة. وإيليا لم يعبر اللّه إليه في الريح الشديدة، ولا في النار ولا في الزلزلة ... بل في النسيم اللّطيف (انظر ١مل ١٩: ١١) حيث تمثَّل له طيف الحضور الإلهي، لا طبيعة اللّه ذاتها. وإيليا، مَنْ يكون؟ هو مَنْ ارتفعت به مركبة ناريّة إلى السماء، وأظهرت ما كان عليه من برٍّ يفوق البشر. وكيف لا نُعجب بالقاضي منوح (انظر: قض١٣: ٢٢) ... إذ ما كان ليتحمَّل رؤية اللّه الذي تراءى له، وكان لذلك يقول لامرأته: «نموت موتاً لأننا قد رأينا اللّه». ففي نظره أن البشر لا يستطيعون تحمُّل رؤية اللّه، فكيف بطبيعته الإلهيّة." [٢٠]

ويكمل القديس غريغوريوس حديثه مشيرًا إلى سليمان وهو قد دخل إلى عمق المعرفة الإلهيّة فيقول القديس: "كلما غاص في الأعماق، كلما أصابه الدوار، ورأى في خاتمة مطافه، كم تباعدت الحكمة عنه." (انظر: جا ٧: ٢٥؛ ٨: ١٧) [٢١].

[20] Orat. 28.18,19.
[21] Orat. 28.21.

وبعد طرح القديس غريغوريوس للأمثلة السابقة، يؤكّد أنّ مكافأة الله العظمّى للّذين هم أنقياء، ويصعدون إلى مرتفعات المعرفة الإلهيّة، هي أن يجعلهم مستنيرين أكثر جدًّا بنور معرفة الثالوث، الذي يمكن إدراكه فقط جزئيًّا، وعلى قدر ما يستطيعون، ويبقى أيضًا ودائمًا غير ممكن إدراكه بصورة كاملة. (٢٢)

وفي نصٍّ من العظة اللاّهوتية الرابعة، يوضِّح القديس غريغوريوس أنّ معرفتنا لله هي نسبيّة فيقول: ''إنّ أعظم اللاّهوتيين، في نظرنا، ليس من اكتشف 'الكل' ... بل من تفوّق على غيره في التصوُّر، ومن حقّق في ذاته صورة الحقيقة، أفضل من غيره، أو ظِلّ *ἀποσκίασμα* تلك الحقيقة'' (٢٣)

ويكرِّر قديسنا مرّة أخرى في العظة ٢٨ فكرته قائلاً: ''الله، في طبيعته وجوهره، لم يتوصَّل أحد إلى اكتشافه.''(٢٤)

وفي نفس العظة يضيف قائلاً: ''إنّ الفكر البشري لا يستطيع أن يُدرِك الألوهة. وإنّ تَخَيُّلها في كامل ذاتها هو أمر غير ممكن'' (٢٥)

ويوضح القديس غريغوريوس أنّ طبيعة وجوهر الله تفوق فهمنا *νοῦ κρείττων* (٢٦)، ''وأنّ التعبير عن الله مستحيل، وأنّ إدراكه أشد استحالة.''(٢٧)

وتلك الفكرة السابقة تظهر السمة الأبوفاتيكيّة apophaticism للفكر اللاّهوتي للقديس غريغوريوس.

الله بسبب صلاحه خلقنا من نفس وجسد

ويقدِّم ق. غريغوريوس المفهوم اللُّغوي لكلمة عدم إمكانيّة الإدراك الكامل *incomprehensibility* في تعبيرات بشريّة حسيّة، وذلك لأن الله

[22] Orat. 26.19.
[23] Orat. 30.17
[24] Orat. 28.17.
[25] Orat. 28.11.
[26] Orat. 2831.
[27] Orat. 28.4.

خالق الأشياء يفوق الوصف، والتعريف، والشكل التي توصف بها الكائنات المخلوقة.

في فكر القديس غريغوريوس، وكذلك العلاّمة أوريجانوس، إنّ كلّ الأشياء المخلوقة لها هويّتها الفريدة، حيث إنّها محدودة ومشكّله بدقة وبطريقة معيّنة، وذلك ما يجعل لها مدلولاً جسديًّا σωματικός [٢٨]، وأنّ العقل البشري يمكنه أن يفهم (يحتوي) الأشياء عن طريق شكل ونظام، داخل أُطر الزمان والمكان، متضمِّنًا فئات من الكمّ والكيف والعلاقات، يمكن أن توصف بها المخلوقات.

ويصف القديس غريغوريوس بعض أنشطة العقل البشري كنوع من الآلام[٢٩] وكثيرًا ما يُعلّق على كثافة الجسد الخاص بالكائن البشري. [٣٠]

فالأشياء يمكن أن تُفهم، وكلّ اللُّغات هي عقليًّا مُجسّدة، ونحن أساسًا عاجزون عن السمو على جسديّة معرفتنا، ولكن الله يفوق حدود كلّ المخلوقات، ساميًا على الزمان والمكان، لهذا فهو لا جسد له ἀσώματον،[٣١] وقد أوضح هذا الأمر، القديس غريغوريوس، في العظة اللاّهوتية الثانية وكذلك في العظة الأولى من سلسلة العظات على الظهور الإلهي، وذلك واضح أيضًا في كتابات العلاّمة أوريجانوس.

ومن الجدير بالذكر أنّ القديس غريغوريوس كان يقظًا، وواعيًا جدًّا، أكثر من العلاّمة أوريجانوس، لحدود وقصور اللُّغة الإنسانيّة للتعبير عن إدراك ومعرفة الله.[٣٢]

ولأن الله، في طبيعته، هو بلا جسد وغير محدود، وأيضًا بسبب تأثير طبيعتنا الجسديّة، فالله غير مُدرك بالنسبة لنا. وبالرغم من أننا نطمح إلى

---

[28] Orat. 38.10 ; Origen, Princ.4.3.15.
[29] Orat. 20.9.
[30] C.F Orat. 2.17, 74;22.6;28.7;29.11;38.12-13.
[31] C.F. Orat. 30.17 ; 28.9.
[32] C.F. Trigg. Joseph W. "Knowing God in the Theological Orations of Gregory of Nazianzus:The Heritage of Origen." *In God in Early Christian Thought :Essays in Honor of Lloyd Patterson*, ed. Andrew McGowan. Leiden: Brill, forthcoming; C.f. Richard,Anne. *Cosmologie et théologie chez Grégoire de nazianze*:Institut d'Etudes Augustiniennes,2003.

معرفة الله بدرجة أعمق، إلاّ أن أي محاولة لمعرفة الله بعيدًا عن التصوُّر والمفاهيم المرتبطة بالخليقة، سوف تصطدم بالحدود الأصليّة للمعرفة البشريّة.[٣٣]

وفي مرات عديدة، يرى القديس غريغوريوس أنّ الحدود الجسديّة (الماديّة) لمعرفتنا تمثِّل بالفعل حدودًا ونهايةً حسنة، والله هو الذي رتّبها كعلامة لصلاحه، ولينمي فرحنا وشوقنا إليه. وقد جعل الله كثافة الجسد بيننا وبينه، حتى لا يمكن أن نفقد ما قد حصلنا عليه بسهوله، مثلما حدث للشيطان الذي سقط.

وفي العظة اللاّهوتية الثانية يوضِّح ذلك القديس غريغوريوس فيقول: "فمن الخير أن يكون الخير صعب المنال ... لتجنيبنا المصير الذي صار إليه لوسيفورس الساقط (أي الشيطان انظر: إش ١٤: ١٢)، ولتجنُّب التكبُّر على الربّ كلي القدرة، بعد أن حصلنا على النور الكامل ... وقد يكون ذلك أيضًا لكي يكون هنالك مكافأة أعظم على الشجاعة والحياة الصافية اللتيْن يتحلّى بهما أولئك الذين تطهروا على هذه الأرض وسعوا سعيًا حثيثًا إلى الغاية المنشودة. لذلك يقوم بيننا وبين الله 'ظلام' (انظر: خر ١٠ : ٢٢) مصدره الجسد، وهو أشبه بالغمام الذي كان يقوم قديمًا بين المصريين والعبرانيين (انظر: خر ١٤: ٢٠). وقد يكون هذا معنى القول: «جعل الظلمة حجابًا له» (انظر: مز ١٧: ١٢). والظلمة هذه كثافتنا التي لا ترى القلّة من خلالها إلاّ القليل .... أمّا نحن «أسرى الأرض»، على حد قول إرميا النبي (انظر مراثي إرميا ٣: ٣٤)، نحن الذين تغمرهم كثافة الجسد، كل هذا ما نعرفه أنّه كما يستحيل على الإنسان، وإن كان شديد السرعة، أن يسبقه ظلّه ـ والظلّ كلما حاولت إدراكه وجدته متقدمًا عليك ـ كذلك يستحيل على مَنْ هم في الجسد أن ينقطعوا تمامًا إلى الأمور الروحيّة بمعزل عن الأمور الجسديّة".[٣٤]

---

[33] Orat. 2.74;24.15;31.7.
[34] Orat. 28.12.

الله يمكن إدراكه فقط بشكل جزئي وبقدر ما تحتمل طبيعتنا

في حديث ق. غريغوريوس في العظة اللاّهوتيّة الثانية، يضع المبدأ، أنه ليس بإمكاننا أن ندرك الله بصورة كاملة، لكنه يكمل بعد ذلك في نفس العظة ويوضح أنه يمكننا أن نتقدّم في معرفة الله. في الحديث عن الصعود على جبل سيناء، يرى القديس غريغوريوس، بالرغم أنه لم يدرك الله بشكلٍ كامل، لكنّه قد تقدّم ورأى وراء الله، لذلك فهو قد بلغ معرفة فعليّة لله، وإن كانت تلك المعرفة جزئيّة ونسبيّة وأقل من الإدراك الكامل، مثل موسى الذي رأى وراء الله، حيث مرّ الله به (انظر: خر٣٣: ٢٣).

ويوضح القديس غريغوريوس ذلك فيقول: "لقد أسرعت لبلوغ الله، وصعدت إلى الجبل، ودخلت الغمام... وعندما نظرت لم أكد أرى سوى وراء الله (انظر: خر ٣٣: ٢٣)" [٣٥]

بينما لم يَرَ القديس غريغوريوس طبيعة الله بالكمال، لكنّه رأى جزءًا منها؛ الذي يمتد ويشع على الخليقة، أي أنه رأى علاماته التي بواسطتها يمكن للخليقة أن تعرف الله، التي يدعوها الكتاب المقدس: مجد الله وجلاله. ويوضح ذلك القديس غريغوريوس في نصّ العظة فيقول: "وعندما انحنيت قليلاً أبصرت، لا الطبيعة الأولى الخالصة من كلّ اختلاط، التي تُدرك ذاتها، أَعني الثالوث ... بل يقع في الطرف ويصل إلينا. أنه على ما أري، عظمة الله في المخلوقات وفي الأشياء التي أبدعها وساسها، وما يسميه داود النقي (النبي)، جلاله (انظر: مز ٨ : ٢). هذا ما يُرى من وراء الله وما يُدرَك بعد اجتيازه (انظر: خر ٣٣: ٢٢ ـ ٢٣)". [٣٦]

ومن الملاحظ أنّ القديس غريغوريوس يؤكّد على الإمكانيّة الفعليّة للبلوغ إلى معرفة الله، فيوضّح أنّ الذين قد تنقّوا، سوف يبلغون معرفة الثالوث،

[35] Orat. 28.3.
[36] Orat. 28.3.

وحينئذ سيكون الآب والابن والروح القدس؛ الثالوث القدوس، معروفًا للمؤمنين الأنقياء.[٣٧]

ويكمل القديس غريغوريوس شرحه العقائدي مُشيرًا إلى طبيعة الله غير المُدركة، وفي نفس الوقت إلى إمكانيّة معرفة الله، وذلك في نصٍّ من العظة الثامنة والثلاثين عن ثيوفانيا الميلاد، حيث يتحدّث عن الاحتفال بالتجسُّد، ضمن سلسلة عظات عن الظهور الإلهي، فيقول: "الله كان كائنًا دائمًا وهو كائنٌ في الحاضر وسيكون دائمًا إلى الأبد، أو بالأحرى هو كائن دائمًا. لابد أنّ 'كان' و'سيكون' هي أجزاء من الزمن؛ زمن طبيعتنا المتغيّرة. أمّا هو فإنه 'كائن' أبدي، وهذا هو الاسم الذي أعطاه لنفسه عندما ظهر لموسى «أنا هو الكائن ἐγώ εἰμι ὁ ὤν» (خر ٣: ١٤) لأنّه يجمع ويحوي كلّ الوجود، وهو بلا بداية في الماضي، وبلا نهاية في المستقبل؛ مثل محيط عظيم لا حدود لوجوده، لا يُحد ولا يُحوى، هو يتعالى كليّة فوق أي مفهوم للزمان وللطبيعة، وبالكاد يمكن أن يُدرَك فقط بالعقل، ولكنّه إدراكٌ غامضٌ جدًّا، وضعيف جدًّا، ليس إدراكًا لجوهره، بل إدراك بما هو حوله οὐκ ἐκ τῶν κατ' αὐτον , ἀλλ' ἐκ τῶν περὶ Αὐτον، أي إدراكه من تجميع بعض ظواهر خارجيّة متنوعة، لتقديم صورة للحقيقة سرعان ما تفلت منّا قبل أن نتمكّن من الإمساك بها، إذ تختفي قبل أن نُدركها. هذه الصورة تُبرِق في عقولنا فقط عندما يكون العقل نقيًّا كمثل البرق الذي يبرق بسرعة ويختفي. أعتقد أن هذا الإدراك يصير هكذا، لكي ننجذب إلى ما يمكن أن ندركه، (لأن غير المُدرَك تمامًا، يُحبط أي محاولة للاقتراب منه). ومن جهة أخري فإن غير المُدرَك يثير إعجابنا ودهشتنا، وهذه الدهشة تخلق فينا شوقًا بالأكثر، وهذا الشوق ينقّينا ويطهّرنا، والتنقية تجعلنا على شبه الله. وعندما نصير مثله (انظر: ١يو٣: ٢)، فإني أتجاسر أن أقول إنه يتحدّث إلينا كأقرباءٍ له (انظر: أف ٢: ١٣)، باتّحاده بنا، وذلك بقدر ما يعرف هو الذين هم معروفين عنده. إنّ الطبيعة الإلهيّة غير محدودة ويصعب إدراكها".[٣٨]

---

[37] Orat. 25-17.
[38] Orat. 38.7.

الله يمكن إدراكه ليس في ذاته بل فيما حوله أي في أفعاله ومجده ونعمته

في النصّ السابق من العظة ٣٨، يصف القديس غريغوريوس أنّ الله كائنٌ غير محدود، يتجاوز ويفوق أبعاد وجودنا، حتى إنّ العقل البشري المحدود يمكنه فقط بالكاد أن يمسك به جزئيًّا، وإننا لا نستطيع أن ندرك الله في ذاته κατ᾽ αὐτον، وبالرغم من تلك الحقيقة، يؤكّد القديس غريغوريوس أنه يمكن أن نعرف الله، وإلاّ سوف لا يكون لنا رجاء. ولكن يمكن بحسب رؤية القديس غريغوريوس، أن ندرك شيئًا من هُدب (طرف) كينونة الله (وجود الله) أي نعرفه بما هو حوله περὶ Αὐτον، أي من خلال علاماته ونعمته ومجده وعظمته وأفعاله الإلهيّة.[٣٩] وبينما العقل محدود بطبيعته، فهو يمكن أن يعرف الله من خلال مفاهيم وأمثلة وأفكار وصور من الخليقة، التي هي مُجرّد ظلال للتعبير عن الله السامي غير المتناهي بطبيعته، وهي تمثل مجرّد صورة عن حقيقة الله. وهذه الصور التي تُستخدم لوصف الله نفسه ويعرفها المؤمنون، هي تصف هُدب كينونة الله (وراء الله) (انظر: خر ٣٣: ٢٣).

في العظة الثانية، نلمح رؤية القديس غريغوريوس عن معرفة الله إذ يقول: "الله قد خلقنا ويمكن أن نلمسه، لا أن ندركه".[٤٠]

فالله يجذبنا قريبًا إلى نفسه وبذلك يمكن أن نعرفه، محوِّلاً إيانا بالتدريج، وموحِّدًا نفسه بنا، وبينما هو باقٍ فوق تلك المعرفة، إنما يجذب طموحنا إليه. ولذلك فإن معرفتنا لله يمكن أن تنمو على قدر ما تكون شركتنا معه أكثر عمقًا وقربًا.

---

[39] Orat. 28.3.
[40] Orat. 2.75.

معرفة الله تكون من خلال استنارة النفس والعقل بالنور الإلهي الفائق

في نصٍّ من العظة "عن المعموديّة" للقديس غريغوريوس، يوضِّح أن الله يضُيء بنوره على نفوس وأذهان الذين قد تنقّوا، وحينئذ يمكنهم معرفته، فيقول: "الله نور (انظر: ١ يو ١: ٥)، وهو الأسمى، ولا يُدنى منه (انظر: ١تيمو٦: ١٦)، ولا يُوصف، وهو لا يدرك (بصورة كاملة) بالعقل، ولا يُعبَّر عنه في كلماتٍ، وهو الذي يُنير كلّ طبيعة عقليّة. يوجد بين الأشياء العقليّة مثل الشمس بين الأشياء الماديّة. يظهر لنا على قدر ما نتطهّر، هو يُحَب بقدر ما يظهر لعقولنا، ولذا فهو يُدرَك بقدر ما نُحبه ... إذ يسكب نفسه على كلّ ما هو خارج عنه. إنه النور الذي نتأمله في الآب والابن والروح القدس، الذي يكمن غناه (الثالوث) في وحدتهم في الطبيعة (كأقانيم في الجوهر الواحد)، وينبهر الإنسان من بهائهم."[٤١]

ومن الملاحظ أنّ من الأفكار الأساسيّة عند القديس غريغوريوس أنّه يُعبِّر عن طبيعة الله؛ إنها نور (كتعبير قانون الإيمان النيقاوي: نور من نور) ويشير كثيرًا إلى معرفة الله أنها استنارة، ومجيء إلى شركة النور الإلهي، وأنّ النور الأسمى للثالوث - الذي يفوق كلّ إدراك - يمتد ويشع طبيعيًّا خارجًا تجاه الآخرين كمصدر لكل الأنوار الأخرى في السماء والأرض.[٤٢]

وفي كتابات القديس غريغوريوس، يُشبِّه نور الله، بالشمس (انظر: مز ٨٤: ١١، مز ٨٩: ٣٦، ملا ٤: ٢، متى ١٧: ٢)، ومثّل الشمس الطبيعيّة، فالله يُضيء ببهاءٍ للإدراك البشري، وكما أن الشمس تُضيء إلى العالم المادي، أيضًا يُضيء الله للجنس البشري، وبصفة خاصة؛ العقل البشري.[٤٣]

وكثيرًا ما يشير ق. غريغوريوس إلى أنّ الاستنارة هي عطيّة الله لأجل معرفته، ومعرفة الله ضروريّة لأجل خلاصنا.

---

[41] Orat. 40.5.
[42] Orat. 45.2.
[43] Orat. 28.3; 40.5; 20.10; 21.1; Carm. 1.2.10.946-960.

استمرار معرفة الله والاستنارة في هذه الحياة وحياة الدهر الآتي

القارئ لكتابات القديس غريغوريوس، يلاحظ، في فكر القديس، أنّ الاستنارة الإلهيّة تبدأ في هذه الحياة، وتستمر في حياة الدهر الآتي حيث تكون الرؤية أكثر كمالاً للنور الإلهي، ويتّضح ذلك من نصٍّ للقديس غريغوريوس في رثاء أخيه قيساريوس، فيصف أخيه المُنتقل قائلاً: "أنت مُمتلئ من النور المتدفّق من الله". ولكن الذين لا يزالوا في هذا العالم يدركون فقط شعاعًا صغيرًا من النور، كما في مرآة في لغز (انظر: ١كو ١٣: ١٢).[٤٤]

ويذكر القديس غريغوريوس كثيرًا عبارة بولس الرسول في (١كو١٣: ١٢)، ليشير إلى أننا نرى الله جزئيًّا فقط أثناء حياتنا علي الأرض، كما لو أنّ النور الإلهي منعكس في مرآة. فنحن الآن نُدرك الله بصورة كاملة، لكن ما يصل إلينا هو قبسٌ ضئيل، كمثل شعاعٍ صغيرٍ من نورٍ عظيمٍ.[٤٥]

ومن دراسة للعالِم John Egan عن مثال القديس غريغوريوس عن المرآة والنور بشأن رؤية ومعرفة الله، فهو يرى أنّ القديس يُميِّز بين معرفة الله في هذه الحياة، التي تُرى بصورة غير مباشرة مُنعكسة على المرآة الداخليّة للنفس، وبين معرفة الله في حياة الدهر الآتي حيث تكون المعرفة أكثر كمالاً ووجهًا لوجه (انظر: ١يو ٣:٢، ١كو ١٣ :١٢).[٤٦]

في العظة رقم ٤٠ يؤكّد القديس غريغوريوس هذه النقطة الهامّة؛ بينما الله غير مُدرك في كماله، لكن النور الإلهي يظهر ويُستعلن للذين قد تطهّروا، ويتدفق عليهم حقًّا، ولكن بصورة جزئيّة ولكن حقيقيّة، لكي يتأمّلوا منذ الآن المجد الفائق للثالوث.[٤٧]

وفي نصٍّ عن النور (الإلهي) من العظة الثانية والثلاثين يُوضِّح النقطة السابقة مرّة أخرى، متذكّرًا قول المزمور «جعل الظلمة ستره. حوله مظلّته ضباب المياه

---

[44] Orat. 7.17.
[45] Orat. 28.17.
[46] Egan, "*Knowledge and vision of God According to GregoryNazianzen*: A Study of Imge and Mirror and Light." Diss., de Paris, 1971, pp.1-2,18.
[47] Orat 40.5.

وظلام الغمام» (انظر: مز ١٨: ١١) مُشيرًا بذلك إلى حضور الله في الغمام على جبل سيناء (انظر: عب ١٢: ١٨) وفي السحاب الراعد كما جاء في (مزمور١٨: ١٣) حتى يمكننا أن نقتني معرفة الله بثباتٍ من خلال حياة النقاوة، فإنّه بالنور نعاين النور (انظر: مز ٣٦: ٩) جاذبًا إيانا إلى أعلى بحسب اشتياقنا.[٤٨]

ويحضّ القديس غريغوريوس سامعيه من أعضاء إيبارشيته، أن يتطهّروا، حتى يمكنهم أن يستنيروا بنور الثالوث، وذلك في عظته التي ألقاها في عيد الغطاس سنة ٣٨١م، إذ يقول: "تصيرون أتقياء ... فتصيرون كأنوار في العالم فتدركون سرّ الاستنارة السمائيّة، وتستنيرون بنور الثالوث بأكثر كمال وبهاء. الذي منه تتقبلون، من الآن، جزئيًّا، على قدر ما تستطيعون، هذا الشعاع الواحد"[٤٩]

وفى نص آخر يكرر حديثه عن الاستنارة فيقول: "إن الله يجذب البشر لنفسه بإنارتهم بنوره"[٥٠]

ويُكمل القديس غريغوريوس عرض رؤيته اللاّهوتيّة عن معرفة الله والاستنارة، بصورة مستيكيّة. ففي نهاية عظاته عن الظهور الإلهي، يحض سامعيه قائلاً: "لنتمسّك بالنور الإلهي الأكثر بهاءً ولنسِر نحو بهائه"[٥١]

وفي النهاية، أوصى بالإيمان بالثالوث وتكلّم بفرحٍ بأنه قد استنار بالثلاثة أقانيم من خلال تأمّله الجوهرَ الإلهي الواحد، وأيضًا رؤيته للنور الواحد في تأمُّله للثلاثة أقانيم.[٥٢]

أيضًا في نصٍّ آخر من العظة عن الأنوار المقدّسة، يحث القديس غريغوريوس سامعيه على مخافة الله وعلى النقاوة، ليتّجهوا باشتياقٍ نحو الله الذي يفوق كلّ عظمة ويرتفعوا إلى مرتفعات الاستنارة بمعرفة النور الإلهي.

---

[48] Orat. 32. 15.
[49] Orat.39.20.
[50] Orat. 21.1.
[51] Orat. 40.37.
[52] Orat. 40.41.

وفي المثال الخاص الذي يقدّمه القديس غريغوريوس في العظة اللاّهوتيّة الثانية، مثال صعود موسى على جبل سيناء، فيُشبِّه القديس غريغوريوس، "وراء اللّه" (انظر: خر ٣٣: ٢٣) بأشعة الشمس التي تنعكس على المياه كظلال من نور.[٥٣] وهذا المقال يبيّن أنّ اللّه أعظم وأقوى من أن يُدْرك في كماله، ولكن مع ذلك فهو ينير على خليقته بمعرفته معرفة واقعيّة، وإن كانت تلك المعرفة جزئيّة وعلى قدر ما نستطيع.

المعمودية هي سر استنارة النفس

وكما أنّ المعمودية هي عمل نموذجي للتطهير المسيحي - كما أوضحنا ذلك في المقال السابق - كذلك هي أيضًا عمل نموذجي للاستنارة الإلهيّة للنفس بالنور الإلهي، هكذا يرى ذلك القديس غريغوريوس. ففي العظات عن الظهور الإلهي، يوضِّح أنّ نور المسيح المُتجسِّد يقود إلى الاستنارة التي يتقبّلها المسيحيون، ويصير لهم النور الحقيقي بمثابة علامة، فيقول: "مرة أخرى ينقشع الظلام، مرة أخرى يشرق النور... مرة أخرى يستنير شعب اللّه بعمود من نارٍ (انظر: خر ١٣: ٢١)، الشعب الجالس في الظلمة أبصر نور معرفة الأسرار الإلهيّة، الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكلّ قد صار جديدًا (٢ كو٥: ١٧).[٥٤]

وفي نصٍّ آخر من العظات عن الظهور الإلهي، يتحدّث القديس غريغوريوس عن المعموديّة بوصفها استنارة *illumination* فائقة، وكذلك عن الشفاء المتعدِّد الأوجه والتحوُّل الذي يحدث للإنسان في المعموديّة، ومعرفة اللّه الممنوحة بها. وكنوعٍ من تأكيد القديس غريغوريوس لرؤيته بأنّ المعمودية هي استنارة مسيحيّة عظيمة، فقد عدَّل المصطلح اليوناني التقليدي (بمعني استنارة) $\phi\omega\tau\iota\sigma\mu\acute{o}\varsigma$ إلى $\phi\acute{\omega}\tau\iota\sigma\mu\alpha$ ليكون له صدى صوتي مع المصطلح اليوناني $\beta\acute{\alpha}\pi\tau\iota\sigma\mu\alpha$[٥٥] (بمعنى معموديّة) وهذا المصطلح يظهر كثيرًا في

---

[53] Orat 28.3.
[54] Orat. 38. 2.
[55] C.f. see Clement of Alexandria, *Paed*.1.6, 26, 29-30. see also Didymus the Blind, *In Pss*.20-21 14.7; *Trin*. 1.15, 18; 2.1, 5,7,14; and Origen, *Fr.in Ps*. 44.11-14.

العظة الأربعين، مُتّبعًا بذلك نفس القراءة اللّفظية للتقليد السكندري القديم لكليمندس السكندري وديديموس الضرير والعلاّمة أوريجانوس.

ويوضِّح القديس فكرته السابقة في وصف المعمودية فيقول: "الاستنارة (مشيرًا إلى المعموديّة) .. هي إشراق النفوس وتحوُّل الحياة، واستغاثة الضمير لله. الاستنارة هي عونٌ لضعفنا، وقمعٌ للجسد، وسلوكٌ بحسب الروح، وشركةٌ مع الكلمة، وارتقاءُ الخليقة، وتحطيم الخطية، وشركة في النور، وانحلال الظلمة. هي مركبةٌ تقود لله، وموتٌ مع المسيح، واكتمالُ العقل، وترس الإيمان، ومفتاح ملكوت السموات، وتغيير الحياة، وإزالة الأوساخ، وحلُّ القيود، وتجديد كياننا المُركَّب. لماذا أذهب إلى تفاصيل أكثر؟ فالاستنارة هي أعظم عطايا الله"[٥٦]

ويصف القديس غريغوريوس معموديّته هو بأنها كانت بمثابة استنارة إلهيّة، ففي حديثه عن شخصيته في إحدى قصائده الشعريّة يتكلّم عن رؤيا رآها لمنظر فتاتيْن عذراويتيْن هما العفّة والطهارة وهما واقفتان في محضر الربّ يسوع المسيح، تدعوانه ليشترك بحرارة معهما، حتّى يمكن أن ترشداه إلى السماء ليقف في بهاء الثالوث غير المائت.[٥٧]

لهذا نرى نقطتيْن محوريتيْن في وصف القديس غريغوريوس للمعموديّة، فإنه من خلالها ننال التطهّر والاستنارة، والتطهّر يفيد ضمنًا، إزالة الأدناس التي تقف في طريق الشخص لمعرفة الله؛ بينما الاستنارة توصف بأنها قبول المؤمنين لشعاعٍ من النور الإلهي، وأنه يجب على الشخص أن يتطهّر لكيما يستنير، ليصعد إلى مرتفعات التأمُّل ومعرفة الله، وذلك كما رأينا في الحديث عن الصعود على جبل سيناء.[٥٨] فالنقاوة تقود إلى الاستنارة،[٥٩] والله يُنير الكائنات العقليّة على قدر نقاوتها، قائدًا إياهم من خلال الحبّ إلى التأمُّل فيه

---

[56] Orat. 40.3.
[57] Carm. 2.1.45, carmen lugubre, here II.257-263; c.f. McGuckin, St. Gregory,*op.cit*., pp.67-76.
[58] Orat. 28.2-3
[59] Orat. 39.8.

ورؤيته.[٦٠] لهذا يُدعى المسيح نورًا، لأنه هو ضياء النفوس التي تطهّرت في العالم، في هذه الحياة.[٦١] ويؤكّد قديسنا على ضرورة عمل الروح القدس فيقول "ومن الروح يأتينا التجديد، ومن التجديد استعادة حالتنا الأولى، ومن هذه الاستعادة، تأتي معرفة من أعادنا"[٦٢] لذا فالنقاوة هي بمثابة الإعداد، فضلاً على أنها أساسًا عمليًّا وفعّالاً للاستنارة. والعلاقة الديناميكيّة بين الاثنتين (النقاوة والاستنارة) تُمثّل حركة للمسيحي صوب الله، انطلاقًا من لحظة المعموديّة التي تُعطي البداية والأساس لتلك الحركة. ويمكننا ملاحظة سلاسة الحياة الروحيّة من خلال تنقُّل القديس غريغوريوس في كتاباته ما بين النقاوة والاستنارة، وأحيانًا يجملهما معًا.[٦٣] ومن خلال عملية التطهّر يستنير المسيحيون بازديادٍ، بنور الثالوث، وبهذه الفكرة يُعِدُّ القديس غريغوريوس سامعيه للمعموديّة، وذلك في عظته الأربعين.

ونرى أنه في حديث القديس غريغوريوس عن التطهُّر والاستنارة والمعموديّة في عظاته، لم يهدف إلى تقديم نظام نسكي شخصي صارم، لكنّه كان يهدف إلى حثّ سامعيه ليطهّروا أنفسهم لكي يتقبّلوا النور الإلهي الذي للمسيح، ويحملوا هذا النور في العالم.

معرفة الله تكون من خلال إعلان إلهي يقبله العقل بالإيمان

يرى القديس غريغوريوس أنّ الله يُعلِن عن نفسه لإدراكنا المحدود، بينما يظل هو ساميًا وفائقًا، والله بذلك يضع فعاليّة للنمو، بها نتحرّك من خلال الاشتياق إلى درجاتٍ أعظم من النقاوة والاستنارة ومنها إلى القامات المختلفة لمعرفة الله.

في العظة اللاّهوتية الثانية، يؤكّد القديس غريغوريوس بشدّة على محدوديّة قدراتنا البشريّة لمعرفة الله بواسطة العقل بمفرده، وذلك ليوجّه سامعيه إلى معرفة الله التي تأتي نتيجة الإعلان الإلهي، ويوضّح تلك الفكرة

---

60 Orat. 40.5.
61 Orat. 30.20.
62 Orat. 30.28.
63 Orat 39.20.

في نهاية العظة فيقول: "لندع الإيمان يقودنا أكثر من العقل، إن أدركت قصور الأخير في الأمور القريبة والمتعلّقة بك، وهو الأمر الذي يجعلك تعرف العقل والمنطق بما هو أبعد من العقل والمنطق."[٦٤]

في النصِّ السابق نرى أنّ القديس غريغوريوس يؤكِّد على أنّ معرفة الله تعتمد على الإيمان، وأيضًا في عظته الثانية على السلام، يرى أن الأمور التي هي أبعد من حدود إدراكنا وقدراتنا العقليّة يمكن معرفتها فقط بالإيمان.[٦٥] فمن المعروف أنّ عمل الإيمان هو أن ترى ما هو أبعد من حدود عقلك المحدود، لكي تعرف الله الذي يفوق ويسمو فوق قدرات العقل الطبيعيّة.[٦٦]

نجد، في فكر القديس غريغوريوس، أنّ العقل هو عطيّة الله للإنسان الذي قد خُلِقَ على صورته ومثاله، وأنّ العقل هو مركز الشخص البشري، والمَلَكَة الأولى التي بواسطتها يمكن أن نعرف الله، ونُدبِّر حياتنا المُركّبة.[٦٧] و يؤكِّد القديس غريغوريوس على أنّ العقل البشري محدود، ويمكن أن يفسد بالخطيّة. إذًا، لا نستطيع أن نعرف الله بمعزل عن الإيمان.[٦٨] وفي العظة الثانية والثلاثين يؤكِّد أيضًا قديسنا على ضرورة الإيمان لنوال الاستنارة.

ويشير القديس غريغوريوس في العظة اللاّهوتيّة الثانية، أنه بدون الإيمان والنعمة، لا يستطيع العقل أن يعرف الله ولا تدبيره للخلاص، وأنه يتعذّر على العقل أن يُدرِك الأبعاد المُتّسعة لحكمة الله؛[٦٩] "فالإيمان يُكمِّل عقلنا."[٧٠]

ويهدف بذلك القديس غريغوريوس أن يحضّ سامعيه على ألاّ يعتمدوا على العقل وحده، لكنّه يوجِّه أنظارهم نحو الإيمان مُكمِّل العقل.[٧١] ويؤكِّد أيضًا قديسنا على أنّ معرفة الله تأتي فقط بالروح القدس، الذي يفحص أعماق الله.[٧٢] (انظر: ١كو٢: ١٠) وبذلك نرى أنّ القديس غريغوريوس يجذب

---

64 Orat. 28.28
65 Orat. 22.11.
66 Orat. 14.33.
67 C.F. Orat..5.2; 27.5;39.7.
68 Orat. 4.44.
69 Orat. 28.21.
70 Orat. 29.21
71 McGuckin, St. Gregory, *op.cit.*, pp. 57-58, 288,332.
72 Orat. 28.6.

اللاّهوتيين نحو معرفة الله كما أعلن الله عن نفسه في شخص يسوع المسيح الابن الكلمة، بالروح القدس، في تدبير الخلاص.

ويصوِّر القديس غريغوريوس رؤيته لله في الحديث عن الصعود على جبل سيناء في العظة اللاّهوتيّة الثانية فيقول: "لقد أسرعت لأدرك الله وصعدت هكذا إلى الجبل، ودخلت الغمام، منعزلاً في داخلي عن المادة ... وعندما نظرت لم أكد أَرَ سوى وراء الله، وكنت محتميًا في الصخرة، بالكلمة، الذي صار جسدًا من أجلنا (انظر: خر ٣٣: ٢٣، يو١: ١٤)."[٧٣]

في هذا النصّ يوضِّح القديس غريغوريوس أنّه من خلال المسيح، الابن، الكلمة المتجسِّد، يمكن أن نبلغ إلى معرفة الله، وأنّ الاستنارة التي يتكلَّم عنها ليست نوعًا عامًا من المعرفة الإلهيّة، لكنّها النور الفائق للثالوث القدّوس وقد اُستعلِن من خلال تجسُّد ربنا يسوع المسيح.

وفي وسط سلسلة العظات عن الظهور الإلهي، بمجرَّد تحوُّل القديس غريغوريوس من الحديث عن تجسُّد السيّد المسيح إلى الحديث عن الاستنارة الإلهيّة التي ينالها المسيحيون في المعموديّة، يضع عبارته التي تُلخِّص فكره اللاّهوتي بشأن معرفة الله، فيقول: "حتى إنّ غير المُدرك يصير من الممكن إدراكه."[٧٤]

ونلاحظ أيضًا أنّ الأفكار التي تحدثنا عنها في العظات اللاّهوتيّة الأولى والثانية والعظات عن الظهور الإلهي، تُمثِّل نوعًا من التوضيح للأبعاد المُتّسعة للاّهوت المسيحي، التي تهدف لحركة اللاّهوتي نحو معرفة الله. وإنه بعمل الروح القدس والإيمان نتقبَّل شعاعًا من النور الإلهي الفائق لأجل معرفة الله غير المُدرك. وقد أعلن الله عن نفسه بتجسُّد ابنه الوحيد في تدبير الخلاص.

فبهذه الطريقة "يجب أن ندرس اللاّهوت" وذلك بحسب رؤية القديس غريغوريوس اللاّهوتي بشأن معرفة الله.

---

[73] Orat. 28.3.
[74] Orat. 39.13